

أبو العلاء المعريّ خير من المتنبيّ بسم الله الرحمن الرحيم

في مقال سابق عن المتنبيّ مبنيّ على فكر أوثق نقّاده (طه حسين) نفيّت عنه ما ألصقه به متأخّروا القوميّين العرب - زوراً - من الكرامة والعزة، إلّا مجرد الادعاء العربيّ المعصريّ حيث لا عزة ولا كرامة.

وقارنت - من نقد طه حسين - بين تسخير المتنبيّ شعره للتسوّل على أبواب الأمراء في استجداء مال أو ضيعة أو إمارة، وبين اعتزال المعريّ الأمراء والمعامة خمسين سنة، وصيانة شعره من التزلف والتسول والمتذلّ.

وقال طه حسين تجاوز الله عنه: (والمتنبيّ حكيم ينتحل الحكمة ويتكلّف الفلسفة، وأبو العلاء المعريّ حكيم حقاً وفيلسوف لا يعرف التكلّف ولا الانتحال؛ والمتنبيّ متكسب بشعره، وأبو العلاء لم يذق لشعره ثمرة مادية في حياته؛ والمتنبيّ محبّ للدنيا متهاك عليها، وأبو العلاء مبغض للدنيا زاهد فيها مزدر لطلابها؛ ولقد ظلّ أبو الطيّب يكدح طول حياته في طلب الدنيا حتى قتلته، بينما ظلت الدنيا تكدح في طلب أبي العلاء حتى قتلها). [مجموعة مؤلفات طه حسين ج 10 ص 226-227، دار الكتاب اللبناني، ط1].

ولكنّ المعريّ - مثل المتنبيّ - اتّهم بالانحراف عن صراط الله المستقيم؛ ورؤي عن شيخ السلفيّين في دمشق، (ويكاد أن يكون السلفيّ الفرد) محمد بهجة البيطار رحمه الله أنه حضر مجلساً كفاً فيه بعض جلسائه المعريّ فاغرو رقت عيناه بالدموع وقال: أتركوه فقد لقي ربّه، وعندما زرنا دمشق أول مرة عام 1374 (أخي صالح وعثمان رحمهما الله وأنا وما أقول: أعود بالله من قول أنا مع العوام وأشباههم) لم نجد سلفياً غيره له علينا حق الزيارة، وكانت دول المنتميين للسنة منذ عصر ابن تيمية تكتم أنفاس السلفيّة والسلفيّين، واشتهر منهم قبله جمال الدين القاسمي رحمه الله (تـ1332) واتهمه المبتدعة المنتمون للسنة بأنّه على طريقة جديدة في الدين سموها الجمالية (كتهمة الدوهابية قبلها والجمالية بعدها، تشابهت قلوبهم وألسنتهم)، وسجّن حتى ظهرت براءته.

ولعلّ الرواية عن شيخنا البيطار رحمه الله هي التي أعادتني للنظر في نقد طه حسين رحمه الله للمعريّ (وهو المنافس للمتنبيّ (303-354) والمعجب به والمقتبس منه، ولكنّه - في رأيي - أكرم خلقاً وأقرب للحق والعدل):

أ - ولد المعريّ (عام 363) في معرّة النعمان من بلاد الشام وتوفّاه الله فيها (عام 449) وأخذ الله بصره في السنّة الرابعة من عمره بسبب مرض الجدري.

قال الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: (هو الشيخ العلامة شيخ الآداب أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان... وكان قنوعاً متعافياً، وله وقفاً يقوم بأمره [غلتّه 30 ديناراً في السنّة يصرف نصفها لخادمه] ولما يقبل من أحد شيئاً، ولو تكسّب بالمديح لحصلّ مالاً ودنياً، فإن نظمه في الذرّة يحدّ مع المتنبيّ والبحثريّ، وارتحل إلى طرابلس واجتاز بالملاذقية فنزل ديّاً به راهب متفلسف، فدخل كلامه في مسامعه، وحصلت له شكوك لم يكن له نور يدفعها، ويقال: تاب من ذلك وارهوى).

قال الذهبي رحمه الله: (خرج صالح بن مرداس ملك حلب إلى المعرة يحاصرها ورماتها بالمجانيق، فخرج إليه أبو العلاء يتشفّع فأكرمه، وقال: ألك حاجة؟

فقال: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)، فقال: قد وهبتك المعرة، فقال بَعْدُ:

نَجّي المعاشر من براثن صالح==ربّ يداوي كلّ داء معضل

ما كان لي فيها جناح بعوضة==الله أولاهم جناح تفضّـل

ب- ذكر الذهبيّ بعض ما نُقِلَ عنه من الإلحاد شعراً ونثراً، لا يسرّني نَقْلُ شيء منه فأكون ساهمت في إشاعة ما هو أعظم من الفاحشة.

ويظهر لي من مجموع ما نُقِلَ عنه أنَّه (قبل اعتزاله النَّاس في الخمسين سنة الأخيرة من حياته) شكّ في دينه وضلّ عن المصرّاط المستقيم ولكنّه في كهولته ثم شيخوخته عاد إلى رشده، تجاوز الله عنه.

ج- يستدلّ طه حسين على توبة المعرّي في عزلته بمثل قوله:

بوحدانّيّة العلام دُنْـا== فذرني أقطّع الأيّام وحوادي

وبمثل قوله:

توحّد فإنّ الله ربّك واحد== ولما ترغبن في عشرة السّفهاء

وبمثل قوله:

إنفرد الله بسلفانــــه==فما له في كلّ حال كفـــــــــاء

ما خفيتُ قدرته عنكُــــــــمُ==وهل لها عن ذي رشاد خفاء

وبمثل قوله:

فضّ زكاةً مــــــــالــــــــك غير أب==فكلّ جموع مالــــــــك يَنْ فَاضٍ ضَنْه

وأعجز أهل هذي الأرض غاؤــــــــمُ==أبان العجز عن خمسٍ فَرْضُهُ

وصُمُ رمضان مختاراً مطيــــــــعاً==إن الأقدام من قيّض رَمَضَنْهُ

وبمثل قوله عن أبيه:

فياليت شعري هل يخفّ وقارــــــــه==إذا صار أُحَدُّ في القيامة كالعــــــــمن

وهل يردّ الحوضُ الرويَّ مبادرّاً==مع النَّاسِ أم يخشى الزحام فيستأنى؟

وبمثل قوله:

إذا قومنا لم يعبدوا الله وحــــــــده==بنصحٍ فإنّ منهم بــــــــراء

وبمثل قوله:

قضى الله فينا بالذي هو كائنٌ==فتمّ وضاعت حكمة الحكماء

وهل يأبى الإنسان من ملُّك ربّه==فيخرج من أرض له وسماء؟

د- ولما يرى طه حسين في كتاب أبي العلاء (الفصول والغايات) ما رأى فيه بعض نقّاده من قصده معارضة القرآن الكريم واستجابة التّحدّي بالابتیان بسُور أو آيات من مثله (فقد كان أشدّ تواضعاً من أن تبلغ به الكبرياء هذا الحدّ، وكان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته)، ويرى أنّه نظر إلى القرآن على أنّه مثل أعلى في اللغة فحاول أن يقلّده فلم يفلح، وكانت النتيجة سجّعاً كسجّع الكهان.

وأعجّب كيف دافع طه حسين عن المعرّي كثيراً ممّا اتّهم به، ثمّ اتّهمه بإسقاط فرض الحجّ ص 441 لقوله:

أقيمي لنا أعْدُ الحجّ فرضاً==على عجز النّساء ولما العذارى

مع أنّ المعرّي خصّ النّساء وهلّل حُكْمَه بما نقله طه حسين ص 527:

ففي بطحاء مكة شرّ قوم==وليسوا بالحماة ولما الغيارى

وإنّ رجال شبيبة سادنيها==إذا راحت لكعبتها الجمّارا

قيام يدفعون الوفد شفعاً==إلى البيت الحرام وهم سكارى

إذا أخذوا الزّوائف أو لجوهم==ولو كانوا اليهود أو النّصارى

فعلى منهج طه حسين في نقده وبرّه بالمعريّ كان أحرى به أن يلتبس له العُذْر بعدم أمن الطريق ولما المبلد الحرام، وكان أهل مكة في أسوأ حال في الجاهلية ثم في زمن البعثة قبل الفتح، وهذه شهادة المعري في القرن الرابع أو الخامس، وقال ابن تيمية في القرن السابع أو الثامن: (وأما سُنَّان الحجاز فأكثرهم أو كثير منهم خارجون عن الشريعة، وفيهم من البدع والضلال والفجور ما لا يعلمه إلا الله) الفتاوى ج 28 ص 533. وعندما اعتمرت أول مرة قبل 67 سنة بدا لي منها أكثر ما بدا لابن تيمية وبعض ما بدا للمعري، وقد طهر الله بيته بدولة آل سعود السنيّة حفظها الله قدوة صالحة، ولكن ذلك لم يمنع العجائز ولما العذارى من الحج والعمرة إلا بظلم من ولادة الأشراف للجميع.

وقال شوقي يشكوا حال مكة إلى سلطان الخرافة العثمانية:

ضجّ الحجاز وضجّ البيت والمحرم==واسْتَصْرَخَتْ رَبّها في مكّة الأهم

قد مسّها في حماك المضرّ فاقض لها==خليفة الله أنت السّيّد الحَكِّم

أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا==إن أنت لم تنتقم فالله منتقم

أضي المضحى- وعيون الجند ناظرة==تسبى النساء ويؤذى الأهل والمحشم

ويسفك الدّم في أرض مقدّسة==وتستباح بها الأعراض والمحرم؟

وقبله قال مثل هذا وزاد عليه: ك. سنوك هور خرونيه، هداه الله فاعتنق الاسلام وقضى في مكة قريباً من نصف سنة يدرس أحوال أهلها وكتب عنها كتاباً بعنوان الترجمة: (صفحات من تاريخ مكة المباركة) لا أظنّ أحداً كتب مثله من العرب أو العجم ونشره زادي مكة المثقافي عام 1411 ودارة الملك عبد العزيز رحمهما الله عام 1419، وظنّ كثيرون ظنّ السوء فاتهموه ككل مسلم أوروبي بأنّه محتال دون البحث عن بيّنة كما أمر الله عباده المؤمنين، وتمعر قلمه لما رأى من وثنيّة المقامات والمزارات والمشاهد والأضرحة ووثنيّتها وأوثانها بما لم أرها تمعرت به أقلام أكثر المسلمين ومنهم المعلّق على الكتاب غير أنّه ظنّ أنّ الكاتب أخطأ بعزوها إلى الجاهلية فعزّاها إلى المفاظمين، والكاتب أقرب إلى الصواب، فقد كانت بدايتها في قوم نوح كما روى البخاري من تفسير ابن عباس لقول الله تعالى: (وقالوا لا تدرنّ آلهتكم ولما تدرنّ وداً ولما سواهاً ولما يغيوث ويعوق ونسراً) وسبق المفاظميين إلى هذه الوثنيّة البويهيين، ولعلّ هارون الرشيد أول من جددها، وقبله عمرو بن لحي، ولم يذكّر من الدولة من أنكرها غير المتوكل ولم يقم دولته على هدمها غير آل سعود أتّابهم الله.

ولم يتمعّر لها قلم حمد الجاسر تجاوز الله عنه فيما نقله عنه المعلّق من ظنّه استحالة لبث النساء ثلاثة أيام عند هذه الأوثان لأنّه

انصرف عن علوم الشريعة إلى الجغرافيا والتاريخ وبالتالي انصرف عن اليقين إلى الظنّ عفا الله عنه، ولما عبرة بظنّه فالكاتب ثقة في نقله ما رأى هو، ولم يره بل ظنّه حمد الجاسر، والله أعلم. □

هـ - ومن مناجاته لله في (الفصول والغايات):

(أدعوك وعملي سيء ليحسُنْ، وقلبي مظلم لكي ينير، وقد عدلتُ عن المحجّة إلى بنيات الطريق، وأنت العدل ومن عدلك أخاف، وإن كان المدع يطفئ غضبك فهب لي عينين كأنهما غمامتا شتى تلبان الصبّاح والمساء، واجعلني في الدنيا منك وجلاً لأفوز في الآخرة بالأمان).

ز - ولِدَ المعرّي في بيت علم، وتولّى القضاء طائفة من أهله منهم أبوه وجدّه وعمّه، وطائفة بعدهم، وقرض عدد منهم المشعر فأجادوا.

واستنبط طه حسين من شعر المعرّي ونثره ثلاث خصال في أخواله تميّزوا بها: (1) كثرة الترحال، (2) كرم النفس وسخاؤها بالمال، (3) حب العلم والنموغ فيه.

وظهر أثر ذلك في نبوغ المعرّي، ولكنّه استبدل الذي هو أدنى: الأدب والفكر، بالذي هو خير: العلم الشرعي. ولم يفارق المعرفة إلا قليلاً، واختار العزلة أكثر حياته ولكن الناس لم يعتزلوه فأتى إلى بيته طلاب العلم من كل صوب ليأخذوا عنه ما يتعلّق باللغة العربية وآدابها فلم يرد أحداً منهم، وربما أخذ العزلة والتقشّف (في المنزل والمأكل والملبس) من الفلسفة الهنديّة، ومنها الامتناع عن أكل اللحوم.

ح - أخذ علوم اللغة عن أبيه في المعرفة، وفي حلب عن محمد بن عبد الله بن سعد النحوي، وأخذ شيئاً من السنّة عن يحيى ابن مسعر، ولم يظهر عليه من دراسته الحديث شيئاً ممّا ظهر عليه من دراسته اللغة فبرز فريداً في لغته وشعره ونثره وإملائه.

ط - وكان غذاؤه العدس والزيتون والدبس والزيت، وحلواه: التين، وشيابه: القطن، وفراشه: لباد للشّاء وحصير للصّيف، وفيه قوّة نفس.

وكان يحفظ كلّ ما مرّ بسمعه، وسَمّى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله ولكفّ بصره، ولم تُرَضِه كنيته: أبو العلاء فقال:

دُعيتُ أبا العلاء وذلك مَيّنٌ==ولكنّ الصّحيح أبا المنزول

وكان يملّي تصانيفه على طلبّاه من صدره.

ي- وعاب نفسه، وعاب زمانه وأهل زمانه كأكثر أهل الفكر والجهل، ومن ابتلي بذلك قلّ (أو عُدِم) شكره لله تعالى على نعمه التي لا تحصى على عباده وأعظمها نعمة الدين ثم نعمة العقل. [] ويظهر من شعره بعد اعتزاله خوفه من حساب الله وجزائه في الآخرة، وخوفه من نقد الناس شعره ونثره (فيما يتعلّق بتديّنه بخاصّة).

ولعلّ شيخنا البيطار رحمه الله ترجّح عنده أنّه تاب إلى الله بعد اعتزاله الناس، ورجا الله له قبول توبته.

ومثله: عبد الله المقصيمي تنقّل بين الدّفاع عن المدين الحقّ ثم مهاجمته ثم تعدّدت الروايات عنه أنّه رجع إلى الله قبل موته، تجاوز الله عمّن تاب وأناب إليه.

وبقيت مؤلّفات المعريّ والمقصيمي وفيها السّمّ الزّعاف ومن حقّهما على المسلمين أن تمزّق وتحرّق فلا يضلّ بها غير من ضلّ بها من قبل، ولكن الفكر (الهُوى) يسعى حثيثاً للمحافظة على الآثار الضّالّة: شعراً أو نثراً أو وثناً. ردنا الله إلى دينه رداً جميلاً.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن المحصيّن عفا الله عنه في 1435/7/15هـ.